الفصل الثالث

من معجزات القرآن

obeikandl.com

obeikandl.com

معجزات متعددة

يخوض علماء الأمة – منذ العصر العباسى – فى بيان معجزات القرآن، فمن قائل: إنه معجز بالصَّرفة إذ صرف الله العرب عن الإتيان بمثله، فعجزوا عجزا تاما طوال عشرين عاما بل تزيد عن معارضته بما يماثله. والرسول يتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، ويقرعهم أشد التقريع، فما استطاعوا ولا قدروا إلا أن يكذبوه بمثل قولهم: (إن هذا إلا سحر يؤثر، إن هذا إلا قول البشر. وقالوا إنه أساطير الأولين، وإفك (كذب) افتراه، وقالوا قلوبنا غلف (فى غلاف) مما تدعونا إليه وفى آذاننا وَقْر (أى ثقل لا نسمع)، إلى غير ذلك من بهتانهم وضلالهم .

والمعجزة الثانية من معجزات القرآن معجزة سماعه وتلاوته إذ كانت تلاوته وسماعه يروعان المشركين فى مكة روعة شديدة فيدخلون فى الإسلام، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يتلو عليهم فى الكعبة كل ما يوحىّ به إليه منه، ونستطيع أن نقول إن المهاجرين دخلت كثرتهم فى الإسلام عن هذا الطريق، وفى بيعة الأنصار الكبرى للرسول كان يتلو عليهم القرآن ويدخلون فى الإسلام، وأرسل معهم مصعب بن عمير وابن أم مكتوم ليعلما الناس القرآن، وأسلم على أيديهما كثيرون من سادة الأوس والخزرج، ثم كانت هجرة الرسول إلى يثرب، وعرضه القرآن على أهلها فدخلوا فى الإسلام فوجا بعد فوج عن طريق ما كانت تمتلئ به قلوبهم حين سماعهم القرآن من الخشية . وبحق يقول الله واصفا تلك الدعوة المعجزة فى سورة

الحشر: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾[1].

والمعجزة الثالثة من معجزات القرآن إنباء الله بالغيب إذ أنبأ المؤمنين بنصرهم على أعدائهم من المشركين واليهود، ودخل الناس فى الإسلام أفواجاً، فما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى الجزيرة العربية موضع لم يعتنق أهله الإسلام. وجعل الله المسلمين خلفاء له فى الأرض، وملكها لهم من أقصى المشارق إلى أقصى المغارب، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: زُويت أى طويت لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها. وسيبلغ ملك أمتى ما زُوى لى منها.

والمعجزة الرابعة أخبار الرسل وأممهم السالفة، وكان لا يعلم أخبار قصصهم إلا أفراد من أحبار أهل الكتاب أفنوا أعمارهم فى التعرف عليها وكان الرسول يأتى بها صحيحة مع أنه لم يتعلمها، إذ كان أميا لا يقرأ ولا يكتب وكان أهل الكتاب يعرفون ذلك، وكانوا يسألونه عن بعض ما غمض من أخبارهم، وينزل عليه القرآن بإجابته لهم، مثل سؤالهم عن الروح وعن يوسف وإخوته وأصحاب الكهف وذى القرنين ولقمان وما حرم إسرائيل على نفسه وما حُرِّم عليهم من الطيبات. وكان القرآن يجيب عن كل ذلك وما يماثله، ولم يكذبوه فى شىء منها، بل آمن به نفر من اليهود مثل ابن سلام وغيره. وكان القرآن يصحح لهم كثيرا من أنبائهم، إذ يقصّها لهم الذى شهدها ورآها: رب العزة، الذى صحّحها وأعاد إليها ما سقط منها كما سنرى فى عرضنا لها عرضا دقيقا.

والمعجزة الخامسة والسادسة من معجزات القرآن المعجزتان العلمية والحضارية، واعتمد القائلون بذلك على قوله تعالى فى سورة الأنعام: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾[2] وقوله فى سورة النحل: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾[3]. وكلمة

(١) سورة الحشر الآية ٢١.

(٢) سورة الأنعام الآية ٣٨.

(٣) سورة النحل الآية ٨٩.

شيء فى الآيتين لا يراد بها شيء من شئون العلوم أو الحياة، وإنما يراد بها شيء من شئون الدين. وهو التفسير الصحيح للآيتين، وذهب كثيرون خطأ فى رأينا إلى أن فى القرآن علوم الأولين والآخرين لسبب بسيط. وهو أن القرآن ليس كتاب علم. وإنما هو كتاب هداية إلى دين قويم. ومضى القائلون بأنه يشتمل على علوم شتى، فقالوا إنه يشتمل على علوم الأوائل من فلك وغير فلك، وأول من توسع فى ذكر العلوم المستنبطة من القرآن الغزالى، وخاصة فى كتابه: جواهر القرآن وفى أوائله يقول "القرآن هو البحر المحيط الذى يتشعب منه علم الأولين والآخرين كما تتشعب عن سواحل البحر المحيط أنهارها وجداولها".

وقد توسعت فى عرض آرائه وآراء من تأثروا به فى نظريته، وخاصة فى تفسير القرآن على ضوئها مثل الفخر الرازى فى القرن السادس الهجرى وأبى الفضل المرسى فى القرن السابع والشيخ طنطاوى جوهرى فى العصر الحديث لأدل على أن آراءهم وتفاسيرهم تحجب عنا القرآن وتخرجنا إلى مباحث قلما تفيدنا فى غايته الإلهية الكبرى من هداية البشرية وبسط تعاليم الله، وقلت أولى من ذلك أن نقول – وهو قول صحيح – إن إعجازه العلمى يتضح فى نقل أمته من أمة أمية لا تعرف القراءة والكتابة إلى أمة علمية لها دورها العلمى العالمى العظيم. وقد نقلها من دورة بداوتها إلى دورة حضارية عظيمة، بحيث نستطيع أن نقول بحق إن للقرآن معجزتين: معجزة علمية ومعجزة حضارية وهما راسختان فى القرآن رسوخا لا يماثله رسوخ.

والمعجزة السابعة من معجزات القرآن المعجزة البلاغية، وما من رسول أرسله الله إلى قوم إلا طلبوا منه معجزة تشهد على صدقه أنه مرسل إليهم من قبل الله

جلّ شأنه. وكانت معجزات الرسل قبل الرسول معجزات حسية، فمعجزة نوح الطوفان، ومعجزة إبراهيم النار إذ استحالت بردا وسلاما، وكان السحر قد بلغ أقصى مداه بمصر فى عهد موسى، فكانت معجزته عصاه تستحيل حية سحرية وجاء السحرة فقضت قضاءً مبرما على كل ما جاءوا به من سحر، واستسلموا لموسى مؤمنين به ومذعنين. وكان الطب بلغ فى عهد عيسى أقصى غايته، فجعل الله معجزته لهم أن يبرئ الأكمه (الأعمى) ويرد إليه بصره ويبرئ الأبرص فيزيل عنه برصه ويرده إنسانا سويا سليما. وكان العرب – فى عهد الرسول – يبلغون الغاية فى الفصاحة والقول الفصل والكلام الجزل يمدحون ويقدحون بالشعر، ويخطبون فى المقامات بالألفاظ الناصعة الجامعة، ويتساجلون فى الشعر والنثر بالحجج الدامغة فرأى الله – تقدّس اسمه – أن تكون معجزة الرسول إليهم القرآن الذى أُحكمت آياته، وبهرت كلماته، وبلغ الذروة من البيان والبلاغة. وتحداهم القرآن مرارا وتكرارا طوال ثلاث وعشرين سنة أن يأتوا بحديث من مثله أو بسورة على شاكلته وهم محجمون عن مماثلته، مذعنون لروعته، مسلمون بعجزهم عن الإتيان بما يضاهيه، معترفون بإعجازه البلاغى وأنه خارج بأسلوبه وصياغته عن قدرة البشر.

القول بالصَّرفة

اختلف العلماء فى التعليل لعجز العرب – فى عصر الرسول – عن الإتيان بما يماثل القرآن وسكوتهم عن معارضته، فذهب نفر إلى تعليل ذلك بأن الله صرفهم عن معارضته ومماثلته إذ سلبهم مقدرتهم عليها حتى تقوم الحجة عليهم بعجزهم. ويعرف هذا القول بالصَّرْفة، وهى المرة من الصَّرف للإشارة إلى أنها

صرف خاص جرى مجرى العلم على صرف الله العرب عن معارضته ومحاكاته. وفي كتاب "الصرفة والإنباء بالغيب" للدكتور حسين نصار أن أول من قال بها الجَعْد بن دِرْهم مؤدب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية. ونتقدم في الزمن إلى أوائل القرن الثالث الهجرى فتُعْزى الفكرة إلى نفر من المعتزلة مثل بشر المريسى وعيسى بن صبيح المُرْدار، واشتهر أكثر منهما بنسبتها إليه النظام معاصرهما، وكان كثير الدفاع عنها والجدال فيها وأن القرآن يمكن مماثلته وأن إعجازه في إنبائه بالغيب، وتابعه الأشعرى قائلا في كتابه مقالات الإسلاميين: "الآية أى المعجزة والأعجوبة بما فيه من الإخبار عن الغيوب، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أن الله منعهم بمنعٍ وعجزٍ أحدثهما فيهم".

ويبدو أن الجاحظ في بواكير حياته كان يأخذ بفكرة أستاذه النظام وأن الله صرف العرب عن معارضته والإتيان بمثله وكان يمزج بينها وبين ما تراءى له من أن القرآن معجز بنظمه أى بصياغته وأسلوبه الرائع على نحو ما يلقانا في كتابه الحيوان من قوله: إن الله صرف العرب عن معارضة القرآن بعد أن تحداهم الرسول بنظمه. وبذلك جمع بين الصَّرفة عن المعارضة وبين تحدى الرسول لهم بنظمه وتراكيبه البلاغية وخطأ في رأينا أن يزعم بعض الباحثين المعاصرين أن الجاحظ كان يقول بالصرفة مطلقا، وهو قد قيدها بروعة نظمه وكأنها في رأيه هي التي صرفت العرب عن الإتيان بما يماثل صياغته الرائعة، ويشهد لذلك ما قاله في كتاب الحيوان سابقا لكلمته الماضية إذ يقول: "في كتابنا المنزل الذى يدلنا على صدقه نظمه البديع الذى لا يقدر على مثله العباد". ومما يدل بقوة على اعتناقه فكرة النظم في إعجاز القرآن أنه ألف كتابا في الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه، وسقط من يد الزمن فلم يصلنا. ويؤكد ما أقول ما رواه عبد القاهر في كتابه دلائل الإعجاز

من أن الجاحظ قال فى كتابه "النبوة" : "لو أن رجلا قرأ على رجل من خطباء العرب وبلغائهم سورة واحدة من القرآن لتبين له فى نظمها ومخرجها من لفظها وطابعها أنه عاجز عن مثلها". وبذلك يتضح الفرق فى الصرفة بين الجاحظ وأستاذه النظام، فالنظام كان يرى أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن، وسلبهم القدرة عليها، والقرآن بذلك ليس معجزا بذاته، إنما الله هو المعجز للعرب أن يعارضوه أو يماثلوه، أما الجاحظ فكان يرى أن القرآن معجز بنظمه وصياغته أى بذاته وأن العرب عجزت عن معارضته لما فيه من صفات بلاغية وضع لها كلمة النظم .

ورد عبد القاهر على النظام والقائلين بالصرفة بأن الله تحدى العرب مرارا أن يأتوا بما يماثل القرآن فى قوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[1] . وتحداهم فى سورة البقرة أن يأتوا بسورة من مثله، ثم قال ﴿ وَلَن تَفْعَلُوا۟ ﴾[2] تعجيزا لهم وأنهم لن يستطيعوه. فكيف يتحداهم الله أن يأتوا بمثله، وهم لا يعرفون الوصف المطالبين به الذى إن جاءوا به أبطلوا التحدى ودعوى الإعجاز، وهل يستطيع صائغ أن يقول لزميل له: لقد أحدثت فى خاتم صنعة لا تستطيع أن تصنع مثلها إلا بعد أن يريه الخاتم ويشير إلى ما زعم أنه أبدعه فيه. وخطأ أن يوصف إنسان بأنه عجز عن شىء لم يقصده ولم يعلمه فى جملة ولا تفصيل. ولو كان القرآن مقدورا للناس أن يأتوا بمثله لما بهر العرب وأكبروه، وراعهم روعة شديدة حتى قالوا إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٨٨.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٤.

والحق أن القول بالصرفة يجرد القرآن – كما قلنا من أن يكون معجزا بذاته، إذ يجعل إعجازه راجعا إلى الله لا إليه مما يفتح الباب لمخالفة قول الله – تقدّس اسمه – لرسوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[1] فجعل الله سماع القرآن فى أثناء تلاوته حجة على الكافر، ولا يكون حجة عليه إلا إذا كان معجزا بذاته. ويؤيد وصف القرآن بالإعجاز قول الله – جل ثناؤه – فى سورة العنكبوت: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[2] أى تتلى آياته المعجزة عليهم. وكل ذلك يشهد بأن إعجاز القرآن ثابت راسخ فيه لا يفارقه أبدا مما يبطل قول القائلين: إن القرآن ليس معجزا بذاته، وإنما هو معجز بالصرفة وأن الله – جل جلاله – هو الذى منع العرب منعا باتا عن معارضته والإتيان بمثله .

وتابع النظّام فى القول بالصرفة بعض تلاميذه من المعتزلة كما تابعه فى القرن الرابع الهجرى أبو الحسن الأشعرى المتوفى سنة ٣٢٤ للهجرة وتعقب الدكتور حسين نصار فى بحثه عن الصرفة كل من قال بها أو ذكرها بين عدّه لوجوه الإعجاز، وعد من بينهم محمد بن بحر الأصبهانى المتوفى سنة ٣٢٢ للهجرة ، ونقل كلامه عنها فى تفسيره، كما عد من بينهم الرمانى المتوفى سنة ٣٨٤ للهجرة فقد ذكرها فى كتابه النكت فى إعجاز القرآن بين وجوه الإعجاز السبعة قائلا إنها صرف الهمم عن معارضة القرآن دون تعليق عليها، وأشاد بوجه بلاغة القرآن وقال إنها خرقت العادة . وغرَّبت الفكرة حتى اعتنقها ابن حزم الظاهرى الأندلسى المتوفى سنة ٣٥٦ للهجرة، إذ قال فى الجزء الثالث من كتابه الفصل فى الملل

---

(١) سورة التوبة الآية ٦.

(٢) سورة العنكبوت الآيتان ٥٠ ، ٥١.

والأهواء والنحل: لا تقولوا فى القرآن هو فى أعلى درجات البلاغة من كلام المخلوقين إذ هو ليس من كلام الناس وبلاغتهم أصلا، وصح أن الله منع الخلق من مثله، وكساه الإعجاز وسلبه جميع كلام الخلق. وممن اعتنق الصرفة ابن سنان الخفاجى المتوفى سنة ٤٦٦ للهجرة، وله فيها كتاب ألفه سقط من يد الزمن، وقررها ودافع عنها فى كتابه المطبوع "سر الفصاحة" . وممن اعتنقها فى خراسان إمام الحرمين الجوينى المتوفى سنة ٤٧٨ للهجرة، فقال إن القرآن غير خارق للعادة وأن معارضته كانت فى مقدور البشر ومنعهم الله منها. وقد عارضها وأنكرها كثيرون من أعلام الأمة على مر العصور الإسلامية.

معجزة السماع والتلاوة

كان العرب قد بلغوا فى الجاهلية شأواً عظيما فى الفصاحة، يخطبون بديها فى المقامات فيروعون سامعيهم، ويمدحون بأشعارهم ويقدحون على البديهة فيخلبون من يسمعونهم بأبياتهم الجامعة وتصرفهم البارع بالقول المحكم والطبع السهل المواتى. واقتضت مشيئة الله العليا أن يرسل فيهم محمدا ينشر بينهم قرآنا نيرا بتعاليمه المثلى التى تكفل للناس السعادة المأمولة فى الدنيا والآخرة، كما اقتضت مشيئته أن يجرى على أيدى رسله معجزات تقترن برسالاتهم من جنس ما يتفوق فيه أقوامهم، فاختص موسى بعصاه السحرية التى تستحيل حين يلقيها ثعبانا مبينا، كما تستحيل يده التى تمسكها بيضاء للناظرين، وترافقهما فنون أخرى من السحر، وكانت تشتهر به مصر فى عصر الفراعنة، فأرسل الله موسى إلى فرعون بعصاه الساحرة، وكان قد طغى طغيانا شديدا فذهب إليه، وعرض عليه أن يهديه إلى ربه، وأراه عصاه الساحرة فكذبه، ونادى فى المصريين: أنا ربكم الأعلى، وجمع لموسى سحرة مصر من كهنتها،

وأعد لذلك حفلا، وجاءوا بسحر عظيم، فألقى موسى عصاه. فإذا هى تلقف كل ما أتوا به من السحر، فبهتوا وآمنوا بأن موسى مرسل إليهم من لدن ربه وخروا له ساجدين . وكان بنو إسرائيل قد بلغوا فى عهد عيسى مبلغا عظيما من الطب، فجعل الله تقدس اسمه معجزته المقترنة برسالته معجزة طبية يفوق فيها أطباء عصره إذ يشفى من بعض الأمراض التى كانت مستعصية على الأطباء لا يعرفون كيف يداوونها ولا كيف يشفون المرضى منها، ولا تزال حتى اليوم مستعصية على الأطباء المهرة، وأقصد الداءين اللذين ذكرا فى سورة آل عمران إذ جاء فيها على لسان عيسى أنه كان يبرئ المولود أعمى كما كان يبرى من أصابه البرص الداء الجلدى المعروف. ولا يزال الطب عاجزا عن برء من يصاب بأحد الداءين. وأيضا كان يحيى الموتى بإذن الله وكان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه، فتشيع فيه الروح والحياة ويكون طيرا حقيقيا بإذن الله. وسجلت الآية رقم ٤٩ فى سورة آل عمران كل هذه المعجزات الطبية لعيسى، وكل ذلك كان يبهر أتباعه فيؤمنون به، كما آمن أجدادهم فى عهد موسى بعصاه الساحرة وغيرها من معجزاته .

واقتضت مشيئة الله العليا أن تكون المعجزة الخارقة التى لا تماثلها معجزة المقترنة برسالة محمد صلى الله عليه وسلم من جنس كلامهم الذى برعوا فيه، وبلغوا الغاية منه فى الفصاحة، معجزة القرآن الباهر الذى أحكمت آياته وفصلت كلماته، وظل الرسول يبهرهم به ويتحداهم بضعاً وعشرين سنة، وهم لا يستطيعون أن يأتوا بقول يماثله أو يضاهيه، من ذلك قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1] أى معينا. وقال لهم: لقد عجزتم عن مماثلته، وتقولون افتراه

(١) سورة الإسراء الآية ٨٨.

واختلقه ﴿ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾[1] وكلّت قواهم البيانية، وظلوا مع ذلك يكررون أنه افتراه، فقال الله لهم متحديا: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ﴾[2] وبذلك وصفهم وصفا قاطعا بأنهم سيبقون عاجزين عجزا تاما من الإتيان بما يماثل سورة من القرآن الكريم، لأنها فوق قدرتهم وطاقتهم.

وكان بعض من عموا عن نوره وهداه يقولون إنه إفك أى كذب افتراه محمد واختلقه، وقالوا إنه سحر تعلمه محمد، وقالوا: ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ﴾[3] لا تسمع ما يقول، وقالوا إنها فى أكنة ساترة لا تعى شيئا مما يقول، وفيها وَقْر أى صمم وبينها وبينه حجاب، وقالوا للسفهاء من أمثالهم لا تسمعوا لمحمد والغوا فيه أى أحدثوا عند نطقه به جلبة وضوضاء حتى لا يسمعه أحد، وقالوا ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[4] ولا شاءوا ولا استطاعوا، إذ كان نور القرآن أخذ يهدى كثيرين من قريش، فتبعوا محمدا وآمنوا به وبرسالته إيمانا عميقا، وعمَّق القرآن فيهم هذا الإيمان بما جاء فيه من المواعظ التى تلين القلوب بل تلين الجلود كما جاء فى آية سورة الزمر: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ ﴾[5] على رسوله ﴿ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ﴾ يشبه بعضه بعضا فى الفصاحة ﴿ مَّثَانِىَ ﴾ تكرر فيه المواعظ والأحكام ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ أى تأخذهم

---

(١) سورة هود الآية ١٣.

(٢) سورة البقرة الآيتان ٢٣ ، ٢٤.

(٣) سورة البقرة الآية ٨٨.

(٤) سورة الأنفال الآية ٣١.

(٥) سورة الزمر الآية ٢٣.

قشعريرة عند تلاوته ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أى أنهم إذا قرءوا آيات الوعيد والتهديد اقشعرت جلودهم من الخشية والخوف، وإذا قرءوا آيات الرحمة والرأفة لانت جلودهم وقلوبهم لما يأملون ويرجون من رحمة الله ولطفه. ويقول الله فى بيان قوة تأثير القرآن على من يسمعه:

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾[1] أى أنه لو خوطب به جبل على شدته وصلابته وكان له عقل يتأثر لرأيته متصدعا من خشية الله. وهو توبيخ للإنسان أنه لا يخرَّ عند سماعه القرآن خاشعا لما يسمع من وعيده، فإن الجبل الصلب لو كانت له أذن وسمع تلاوته ووعاها لتصدع وتشقق من خشية الله .

وبذلك نستطيع الآن أن نفهم كيف أن الرسول – فى السيرة العطرة – كان إذا عرض الإسلام على شخص من قريش أو غيرهم وتلا عليه بعض آيات القرآن وقرعت سمعه شَعَر لها بصنيع عظيم فى قلبه وروعة لا نهاية لها فى نفسه، فاستجاب للرسول ونطق بالشهادتين. حدث ذلك فى دعوة الرسول للإسلام دائما من دعاهم من قريش إذ كان يتلو عليهم بعض آيات من القرآن فيستجيبون لما يصنع فى قلوبهم من خشية الله والإيمان بالإسلام. وكان أولَ من أجابه صديقه أبو بكر، وكانت له منزلة كبيرة فى قريش، فدعا بدوره إلى هذا الدين الجديد فلباه خمسة هم عثمان والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيدالله فأخذهم إلى الرسول وأعلنوا إليه إسلامهم وسمعوا منه آيات من القرآن وعلمهم الصلاة فصلوا، وكان عثمان حفيدا لعبد المطلب جَدّ الرسول، وكان الزبير ابنَ صفية عمته. ثم أسلم أبو عبيدة بن الجراح وأبو سلمة

---

(١) سورة الحشر الآية ٢١.

ابن عبد الأسد وكان ابن عمة الرسول بَرَّة بنت عبد المطلب وعيَّاش بن أبى ربيعة وعبد الله بن جحش ابن أميمة بنت عبد المطلب وأخوه أبو أحمد وجعفر بن أبى طالب وامرأته أسماء وعبد الله بن مسعود والأرقم بن أبى الأرقم، وبه أسلم عشرة أنفس واتخذ الرسول داره على الصفا لدعوة القرشيين فيه إلى الإسلام، وعبيدة بن الحارث وسعيد بن زيد وامرأته فاطمة بنت الخطاب أخت عمر وأسماء بنت أبى بكر. وقد ظل الرسول يدعو إلى الإسلام سِرًّا طوال ثلاث سنوات. ثم أمره الله أن يجهر بدعوته وينذر عشيرته قائلا كما فى سورتى الشعراء والحِجْر: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[1] ﴿ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴾[2] ودعاهم إلى طعام، ولما طعموا أخذ ينذرهم ويخوفهم من غضب الله، وأخذ عمه أبو لهب يخوفه من قريش، ودعاهم إلى طعام ثانية وتكلم عمه أبو طالب بكلام طيب غير أن أبا لهب هاج وماج، وقال لهم خذوا على يديه. فقال أبو طالب لنمنعنَّه ما بقينا. ونزلت على الرسول آية سورة الحجرْ: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[3] لكى يجهر بدعوته لا لعشيرته وحدها، بل لجميع عشائر قريش وعشائر القبائل العربية، وأخذ الرسول يدعو الحر والعبد إذ كان فى مكة عبيد كثيرون، ودعا قريشا إلى نبذ عبادة الأصنام والأوثان، وعبادة الله وحده. وهالت هذه الدعوة قريشا إذ كان بها الكعبة: وأصنام العرب، وكانوا يحجون إليها سنويا لتقديم النذور والقرابين، وسلط كبراؤها على الرسول سفهاءهم من الشعراء فأخذوا يزعمون أن ما يقوله الرسول كهانة وشعر وجنون وسحر وأساطير الأولين. واقترب موسم الحج فدعا الوليد بن المغيرة خصم الرسول

---

(١) سورة الشعراء الآية ٢١٤.

(٢) سورة الحجر الآية ٨٩.

(٣) سورة الحجر الآية ٩٤.

العاتى نفراً منهم وقال لهم إن وفود العرب ستقدم عليكم فما أنتم قائلون فى محمد ودعوته فمن قائل قال نقول لهم إنه كاهن فقال له إن قرآنه ليس بزمزمة الكاهن (كلامه المهموس) ولا سجعه، وقال ثان نقول إنه مجنون، فقال الوليد ليس بوسوسة المجنون، فقال ثالث نقول إنه شاعر فقال لقد عرفنا الشعر ورجزه وما هو بشاعر، وقال رابع نقول ساحر، فأعجبه ذلك فقال تقولون إنه يفرِّق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته، فاقتسموا طرق مكة أيام الحج، وأخذوا يسمعون وفود العرب قسمتهم أجزاء القرآن بين كهانة وجنون وشعر وسحر وأنذر الله هؤلاء المقتسمين للقرآن فى نهاية سورة الحِجْر إذ جعلوه عضين أى أجزاء وأقساما: سحرا وغير سحر. فقد توعدهم الله، وتوعد معهم الوليد بن المغيرة بما سينزل به من العقاب فى سورة المدثر إذ يقول تقدس اسمه:

﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَـٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾(١).

وحدث يوما أن مرَّ أبو جهل بالرسول، وهو على الصفا يدعو إلى دينه فآذاه وشتمه بالعيب لدينه، ولم يردّ الرسول عليه، ورأت ذلك مولاة لعبد الله بن جُدْعان ومضى أبو جهل إلى ناد لقريش عند الكعبة، فجلس معهم. ولم يلبث

(١) سورة المدثر الآيات ١١ ، ٢٥.

حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحاً قوسه راجعا من صيد له. وكان إذا رجع من صيده لم يذهب إلى أهله حتى يطوف بالكعبة وكان أعزّ قريش وأشدها شكيمة، فلما مر بالجارية ذكرت له إيذاء أبى جهل لابن أخيه: محمد، فغضب حمزة لما أراد الله به من كرامته وإسلامه، ودخل المسجد مغضبا، ووجد أبا جهل جالسا فى نادى قومه، حتى إذا أصبح على رأسه رفع القوس فضرب أبا جهل بها فشجَّه بها شجة منكرة، ثم قال له أتشتمه وأنا على دينه.

ولما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عزَّ وامتنع وأن حمزة سيحميه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالونه به. وأخذ أتباع الرسول يزدادون، واجتمع سادة قريش فى ناديهم ومعهم عتبة بن ربيعة، وكان سيدا حصيفا، فقال لهم ألا أقوم إلى محمد، وكان جالسا فى المسجد وحده فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه ما شاء منها ويكف عنا، فقالوا له: بلى يا أبا الوليد. فقام عتبة حتى جلس إلى الرسول، فقال له: يا بن أخى إنك منا حيث قد علمت من الشرف فى العشيرة والمكان فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرَّقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم وكفَّرت به من مضى منهم، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، فقال له: قل يا أبا الوليد أسمع، قال: يا بن أخى إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا وإن كان هذا الذى يأتيك رئيًّا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطبيب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبْرئك منه، فربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه. وقال له الرسول: أوقد فرغت قال: نعم. فقال له: فاسمع منى قال أفعل، فقال الرسول ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم: وتلا عليه صدر سورة فُصِّلت:

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾[1].

وظل الرسول يتلو السورة على عتبة حتى الآية الثالثة عشرة ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾[2] فناشد عتبة الرسول الرحم أن يكفّ خوفا من أن ينزل العذاب بقريش . ولما جلس عتبة إلى أصحابه قالوا له ما وراءك يا أبا الوليد، فقال لهم: ورائى أنى سمعت قولا ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش خلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه. والله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم، فإن يظهر عليه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وأنتم أسعد الناس به، قالوا: سحَرك والله يا أبا الوليد بلسانه. فقال: هذا رأيى فيه واصنعوا ما بدا لكم .

ولما ازداد عدد أتباع الرسول أهمَّ قريشا أمره، فأرسلوا النَّضْر وعقبة بن أبى معيط إلى يهود المدينة يسألانهم عن أمره فقالوا لهم سلوه عن ثلاثة أشياء، فإن أجاب عنها فهو نبى، وهى الروح وفتية الكهف والرجل الطواف حول الأرض. ونزل القرآن بالإجابة، أما عن الروح فقال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ

---

(١) سورة فصلت الآيات ١ ، ٦.

(٢) سورة فصلت الآية ١٣.

رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1] وأما فتية أهل الكهف والرجل الطواف فنزلت فيهما سورة الكهف، إذ ذكرت قصة الكهف وأصحابه فى أوائلها وقصة الإسكندر المقدونى فى آخرها. وتلا الرسول السورة على سائليه من قريش، ونعرض من قصة أصحاب الكهف فيها بعض مقتطفات: ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ . . . . فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا. . . وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ (تميل) عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ. . وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ (فناء بالكهف) . . وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ. . سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ. . وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾[2]

واشتد حينئذ إيذاء قريش للمسلمين وخاصة للعبيد الذين ليس لهم ما يمنعهم ويحميهم من سادتهم، وحرَّر أبو بكرٍ منهم سبع رقاب أشهرهم بلال، وكان يشتد فى تعذيبه مولاه أمية بن خلف. ولما رأى رسول الله ما يصيب أصحابه من الإيذاء وما هو فيه من العافية لمكانة عشيرته وحماية عمه أبى طالب له أشار على أصحابه أن يخرجوا إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يُظلم أحد عنده، حتى يجعل الله لهم فرجا مما هم فيه، فأخذوا يخرجون إليها فرارا بدينهم، وكانت أول هجرة فى الإسلام.

---

(١) سورة الإسراء الآية ٨٥.

(٢) سورة الكهف الآيات من ١٠ إلى ٢٥.

ولمار رأى عمر بن الخطاب بعض الصحابة يهاجرون إلى الحبشة تاركين موطنهم وديارهم أصابه حزن واكتئاب عليهم، وكان فتى شديد المراس مفتول العضل حاد الطبع سريع الغضب فامتلأ سخطا على الرسول الذى فرَّق قريشا وسب آلهتها . وحاول أن يتصدى له يوما فى طريقه إلى الكعبة ومسجدها، فوجده قد سبقه إلى المسجد ليصلى ويتلو آيات من القرآن جهرا ليستمعها الناس آملا فى أن يتأثر بها بعض السامعين، فيعلنوا إليه إسلامهم. وقام عمر خلفه مستترا منه، ورآه يستفتح بتلاوة سورة الحاقة فأخذ يسمع ما فيها من تهويل عن يوم القيامة وتهديد المكذبين بوقوعه وما حل بالأمم المكذبة للرسل من العذاب مع وصف أحوال من يوم القيامة، وقال عمر فى نفسه إنه شاعر وإذا الرسول يتلو ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾[1] فظن أنه كاهن، ففوجئ بقول الله عقب الآية السابقة: ﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[2] ومضى الرسول يتلوها إلى نهاية آيتها الثانية والخمسين. يقول عمر: فوقع الإسلام فى قلبى كل موقع. وتطورت الأحداث سريعا وأعلن عمر إسلامه.

وفى إعلان عمر لإسلامه ثلاث روايات فى كتب السيرة إحداها رواها ابن هشام فى سيرته عن ابن إسحاق، وهى التى اشتهرت، والروايتان الثانية والثالثة عن عمر نفسه، وأولاهما عند ابن هشام عن ابن إسحاق، وليست دقيقة، والثانية عن أسامة بن زيد مولى رسول الله ﷺ رواها ابن سيد الناس فى السيرة النبوية التى سماها "عيون الأثر فى فنون الشمائل والمغازى والسير" ولها سند وثيق عن طريق أسامة بن زيد راويها عن عمر، وهى تذكر أن عمر

---

(١) سورة الحاقة الآيتان ٤٠ ، ٤١.

(٢) سورة الحاقة الآية ٤٢.

خرج من داره متوشحا سيفا، فلقى فى طريقه نعيم بن عبد الله وكان مسلما ويخفى إسلامه خوفا من أذى قريش. وسأله عن قصده، وعرف منه أنه يريد أن يبطش بمحمد حتى تستريح قريش منه ومن تفريقه لجماعتها وسبه لآلهتها، فقال له: ألا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم، فسأله: وما ذاك فقال له نعيم إن أختك فاطمة وزوجها سعيد بن زيد أسلما، فغضب عمر وانطلق إلى دار أخته وصهره، وكان معهما خبَّاب بن الأرتّ يقرئهما القرآن فى بعض الروايات، فلما عرفوا أن عمر مقبل وسمعوا حسه تغيب خبَّاب فى غرفة خوفا منه، وقيل بل كان مع خبَّاب ثان فاستترا منه، وعرف عمر من أخته وزوجها أنهما أسلما، فبطش به، وأسرعت أخته تمنعه من زيد فبطش بها وسال منها الدم، فرقَّ لهما. يقول: "دخلت دارهما وأنا مغضب، وجلست على السرير، ونظرت، فإذا بكتاب فى ناحية من البيت، فقلت لأختى ما هذا الكتاب؟ فأعطينيه فقالت له: لا أعطيكه لست من أهله أنت لا تغتسل ولا تتطهر، وهذا لا يمسه إلا المطهرون، ولم يزل يلحّ عليها حتى أعطته له، وكان به سورة الحديد. يقول عمر فقرأت:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ . فلما قرأت (الرحمن الرحيمُ) دُعرت ورميت الصحيفة من يدى. ثم رجعت إلى نفسى فإذا فيها:

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾
لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ
﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾
هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ
يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا
يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ
﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾

يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾[1]

وما إن تلا عمر الآية الثامنة الأخيرة حتى كان الإيمان بمحمد ورسالته قد تغلغل في قلبه، فوضع الصحيفة أمامه ونطق بالشهادتين قائلا: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فخرج من كانوا مختبئين، وكبَّر الجميع استبشارا بما سمعوا منه وحمدوا الله، وقالوا له أبشرْ فإن رسول الله ﷺ دعا فقال: اللهم أعزَّ الإسلام بأحد الرجلين إما أبو جهل وإما عمر بن الخطاب، وقال لهم: أخبرونى بمكانه، فقالوا له هو فى دار الأرقم بأسفل الصفا. فذهب إليه، وأعلن إسلامه فكبَّر المسلمون الموجودون تكبيرة سمعت بطرق مكة. ومرَّ بخاله أبى جهل وأعلمه بإسلامه، فأغلق الباب دونه، وعلم الناس فى حِجْر الكعبة أنه أسلم. وقال عبد الله بن مسعود كنا نصلى فى شعاب مكة مستخفين، فلما أسلم عمر قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه. وقد عزّ المسلمون بإسلامه وإسلام حمزة عم الرسول، وبه تم عدد من أسلم من الصحابة أربعين نفسا أو تزيد. وأخذ المسلمون يزدادون.

وكان الرسول يطوف بالكعبة يوما فاعترضه الوليد بن المغيرة وأمية بن خلف والأسود بن المطلب والعاص بن وائل من شيوخ قريش وسألوه أن يجلس إليهم، وأجابهم لما يأمل من دخولهم فى الإسلام، فلما جلس إليهم قالوا له: تعال نعدل بين دينك وديننا: نعبد معا آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة، فإن كان

---

(١) سورة الحديد الآيات ١ ، ٨ .

ما نعبد من آلهتنا خيرا مما تعبد كنا قد أخذنا بحظنا من عبادتنا، وإن كانت عبادة إلهك خيرا من عبادة آلهتنا كنت قد أخذت بحظك من عبادة إلهك. فقال لهم: معاذ الله أن أشرك بربى غيره فى عبادته ولم يلبث أن نزلت عليه سورة الكافرون:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾[1].

وفى اليوم التالى ذهب الرسول إلى نادى قريش فى المسجد الحرام، وفيه شيوخ قريش، فقرأ عليهم السورة فعرفوا أنه لن يعترف بآلهة أصنامهم ويئسوا من أن يخلط دينه بشىء من عبادتهم الوثنية الكافرة.

وكان الرسول ﷺ يصلى عند الكعبة ويتلو عندها القرآن مع بذل النصيحة للناس ودعوتهم إلى النجاة. وكانت قريش تحذر منه من يقدم عليهم من العرب، وقدم إلى مكة شريف من قبيلة دَوْس هو الطفيل بن عمرو، فمشى إليه قرشيون يحذرونه من لقاء محمد قائلين له إنه فرَّق جماعتنا وسب آلهتنا وحديثه كالسحر يفرِّق بين الرجل وبين أبيه، وبينه وبين أخيه وبينه وبين زوجه وإنا نخشى منه عليك وعلى قومك. فحشوت أذنى قطنا خشية أن أسمعه، وغدوت إلى المسجد فوجدت الرسول قائما يصلى عند الكعبة، فقمت منه قريبا، وأبىَ الله إلا أن يسمعه بعض قوله، يقول فسمعت كلاما حسنا (يريد آيات من القرآن تلاها الرسول) فمكثت حتى انصرف فتبعته، فدخل بيته، فدخلت عليه، وحكيت له ما كان من قريش معى فأعرضْ على أمرك، فعرض علىّ الإسلام، وتلا علىّ القرآن، فلا والله ما سمعت قولا أحسن منه

---

(١) سورة الكافرون الآيات ١ ، ٦.

فأسلمت، وقلت له إنى مطاع فى قومى وسأدعوهم إلى الإسلام . وبمجرد أن عاد دعا أباه إلى الإسلام، فأسلم فقال له: اذهب فاغتسل وطهر ثيابك ثم تعال حتى أعلمك ما تعلمته من الصلاة . ودعا قومه إلى الإسلام فأبطئوا عليه ثم دخلوا فيه .

وقدم على الرسول ركب من النصارى فيه عشرون رجلا فجلسوا إليه وكلموه – وقد سمعوا به من النصارى فى الحبشة، فدعاهم إلى الله عز وجل وتلا عليهم القرآن . فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه، وقيل إنهم من نصارى الحبشة أو أنهم سمعوا عنه منهم، وقيل بل كانوا من أهل نجران اليمنية .

وكان الرسول يعرض على القبائل وسادتها فى مواسم الحج الإسلام ويتلو عليهم القرآن. وفى السيرة لابن هشام أن شخصا شاهد الرسول بمنى يقف على منازل القبائل من العرب فيقول: يا بنى فلان إنى رسول الله إليكم يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه وأن تؤمنوا بى وتصدقونى، وتمنعونى حتى أبين لكم ما بعثنى به. وتروى السيرة عن شخص آخر رآه بسوق ذى المجاز يعرض الإسلام على القبائل يقول يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا . ومن القبائل التى عرض عليها الإسلام غسان وبنو فزارة وبنو مرة وبنو سليم وبنو عبس وثعلبة وبنو الحارث وبنو عُذْرة وذُهْل وشيبان.

وعدوى الحرب المستمرة بين القبائل البدوية فى نجد كانت قد انتقلت إلى الأوس والخزرج فى المدينة، فكان أفراد القبيلتين لا يرفعون أيديهم من دماء حرب بينهما حتى يغسلوها فى دماء حرب جديدة، وكان اليهود النازلون بينهم فى المدينة يعملون دائما على إشعال نيران العداوة بين القبيلتين، وكانوا يصنعون لهما الأسلحة التى يستخدمونها فى الحرب، وبعد موقعة بُعاث آخر وقائعهم فى الجاهلية ذهب وفد من الأنصار برئاسة أنس بن رافع من الأوس إلى مكة ليعقد حلفا معها لتنصرهم على الخزرج، فالتمس الرسول منهم الجلوس

معهم فجلسوا إليه، فدعاهم إلى الإسلام، وتلا عليهم القرآن فآمنوا به وصدقوه وعادوا إلى المدينة فتحدثوا لقومهم عنه ودعوا إلى الإسلام وأخذ يشيع فى المدينة. وفى العام التالى قدم مكة فى موسم الحج اثنا عشر منهم خمسة من وفد العام الماضى، وتلا عليهم القرآن عند العقبة، فبايعوه، بايعه كل واحد منهم على الدخول فى الإسلام وأن لا يشرك بالله شيئا ولا يسرق ولا يزنى ولا يقتل أولاده ولا يأتى ببهتان يفتريه بين يديه ورجليه ولا يعصى الرسول فى شىء. وأرسل الرسول معهم مصعب بن عمير وابن أم مكتوم ليعلما أهل المدينة القرآن ويفقهانهم فى الدين. ونزلا على أسعد بن زرارة أحد الستة الذين أسلموا فى البيعة الأولى، وأخذ الأنصار يسلمون على أيديهما جماعات ووُحْدانا. وأكتفى بأن أذكر الطريقة التى أسلم بها سعد بن معاذ الأوسى سيد بنى عبد الأشهل، وذلك أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب إلى ديار عشيرة سعد بن معاذ وكان ابن خالته، فقال له سعد: أما والله لولا ما بينى وبينك من القرابة ما رُمْتَ هذا منى أتغشانا فى دارنا بما نكره. وكان أسعد قال لمصعب جاءك والله سيدُ منْ وراءه من قومه، وإن تبعك لا يتخلف منهم اثنان. وقال مصعب لسعد هلا تقعد فتسمع فإن رضيت أمرا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ماتكره، قال له سعد: أنصفت، وكانت فى يده حربته فركزها وجلس فعرض مصعب على سعد بن معاذ الإسلام وقرأ عليه القرآن، فامتلأ قلبه خشية من ربه، وقال لهما كيف تصنعون إذا أسلمتم ودخلتم فى هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتتطهر وتطهر ثوبك ثم تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ثم تصلى ركعتين. فقام سعد فاغتسل وطهر ثوبه، وشهد شهادة الحق بتوحيد الله ورسالة رسوله محمد. وأخذ حربته ومضى فوقف على بنى عبد الأشهل، وقال لهم يا بنى عبد الأشهل كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا سيدنا وأفضلنا رأيا وأيمننا نقيبة، فقال لهم: إنى أسلمت، وإن كلام رجالكم علىّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، وما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا أسلما ما عدا بعض بطون وعشائر أسلمت فيما بعد.

ويذكر لمسلمى المدينة ومعهم مصعب وابن أم مكتوم وسعد بن معاذ وأسعد ابن زرارة أن أقاموا صلاة الجمعة وسموا اليوم باسمها. وكثر فى المدينة من أسلموا على يد مصعب وابن أم مكتوم. يدل على ذلك أنه لما أقبل موسم الحج، تألف منهم وفد كبير من ٧٣ رجلا وامرأتين هما أم عمارة من بنى النجار وأسماء بنت عمرو من بنى سلمة. وظلوا بمكة فى رحالهم حتى إذا مضى ثلث الليل اجتمعوا عند الكعبة، وجاءهم الرسول ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، وتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا القرآن وملأهم خشوعا، ودعا إلى توحيد الله ورغب فى الإسلام ثم قال لهم: أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم. وأخذ البراء بن معرور سيدهم بيده قائلا: نعم والذى بعثك بالحق نبيا لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا (أى نساءنا) فبايعنا يا رسول الله، فنحن – والله – أبناء الحروب وأهل الحلقة (الدروع) ورثناها كابرا عن كابر.

وواضح أن مصعب بن عمير وابن أم مكتوم كانا يتلوان على من يعرضون عليه الإسلام من أهل المدينة القرآن فيملؤهم مخافة من ربهم وخشوعاً له، بالضبط كما كان يصنع الرسول بحيث نستطيع أن نقول إن كل من هاجروا إلى المدينة أسلموا إما عن طريق سماع القرآن وإما عن طريق تلاوته كما حدث لعمر، وبالمثل من أسلم على يد الرسول بعد هجرته، وكان آخر قرشى أسلم على يديه بعد هجرته جبير بن مطعم، إذ يروى صحيح البخارى عنه قال: سمعت الرسول يقرأ فى المغرب سورة الطور، فلما بلغ قوله تعالى منها: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾[1] كاد قلبى أن يطير، وكان مشركا. وقدم على الرسول فى فداء أسرى بدر، فسلم عليه بعد صلاة المغرب وأعلن إسلامه. وكل ذلك إعجاز للقرآن بسماعه وتلاوته لا يماثله إعجاز.

---

(١) سورة الطور الآيات ٣٥ ، ٣٧.

معجزة الإخبار بالغيب

من معجزات القرآن الكريم الإخبار بالغيب فى شئون الناس والدول وما سيحدث لهم فى المستقبل، وعود لرب الكون والأمم لا تتخلف، ومن أوائلها ما جاء فى سورة الحِجْر من قوله تعالى:

﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1].

هذه الآيات إنذار من الله عز وجل بعذاب المقتسمين طرق مكة وأبوابها ومسالكها فى موسم الحج بمكة قبل الهجرة ليصدوا الوافدين عليها من القبائل عن لقاء محمد ﷺ والاستماع إلى القرآن ورسالته. تعاقدوا على ذلك فكانوا يلقونهم ويحذرونهم من الاختلاف إليه واصفين له بما ينفرهم منه ويصدهم عنه، فمن قائل إنه ساحر فلا تقربوه، ومن قائل إنه شاعر كاذب فلا تدنوا منه، ومن قائل إنه كاهن يضرُّ بكهانته، ومن قائل إنه مجنون يهذى بكلام غير مفهوم، ومن قائل إنه يحكى أساطير الأولين إلى غير ذلك من افتراءاتهم.

والله يتوعدهم قائلا: ﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴾ أى كما سننزل عليهم من العذاب الشديد، وعبرت الآية بالفعل الماضى عما سيحدث من العذاب لهم للدلالة على أن إنزال هذا العذاب بهم محقق ولا ريب فيه، إذ إنه إخبار بما سيكون أنه تحقق وحدث فعلا. ويصفهم الله قائلا: ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ أى أجزاء مشوهة، جزء سحر، وجزء شعر، وجزء كهانة، وجزء هذيان جنون، وجزء من الأساطير المفتراة. وهكذا جعلوا القرآن (عضين) جمع عضة، وهى الجزء من

---

(١) سورة الحجر الآيات ٩٠ ، ٩٣.

الشيء، وأصلها "عضو" فحذفت الواو منها وعوضت عنها الهاء مثل سنة، وتجمعان جمع مذكر سالم أو ملحقتين به، فيقال "عضين" مثل سنين إذ جعلوا القرآن بما نعتوه – أجزاء: جزء سحر وجزء شعر إلى غير ذلك من أجزاء .

وتذكر كتب السيرة النبوية وكتب التفسير هذا النفر الضال من قريش وبلغت بهم بعض الكتب خمسة عشر، وهم: حنظلة بن أبى سفيان، وعتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة، وأبو جهل عمه، وأخوه العاص، وأبو قيس بن الوليد، وقيس ابن الفاكه، وزبير بن أمية، وهلال بن عبد الأسود، والسائب بن صيفى، والنضر ابن الحارث، وأبو البخترى بن هشام، وزمعة بن الحجاج، وأمية بن خلف، وأوس بن المغيرة. وتحقق فيهم جميعا، ما أنذرهم الله به، ففريق منهم عاجله الموت قبل الهجرة، وفريق ذاق حتفه وسفك دمه فى غزوة بدر، ويقسم الله قسما عظيما بذاته الإلهية أنهم سيعرضون عليه يوم القيامة ويسألهم عما اقترفوه ضد الرسول ﷺ وعما ارتكبوا فى دنياهم من الذنوب والآثام.

سورة الأنفال

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[1].

علم رسول الله – ﷺ – فى السنة الثانية للهجرة أن قافلة كبيرة لقريش تحمل عروضا ومتاجر كثيرة، يقودها أبو سفيان ومعها حامية لها أربعون رجلا وقيل بل سبعون رجلا، وكان معها فى القافلة ألف بعير تحمل متاجر قريش.

---

(١) سورة الأنفال الآيتان ٧ ، ٨.

وندب الرسول المهاجرين والأنصار للقائها، واستجاب له خمسة وثلاثمائة منهم ثلاثة وسبعون من المهاجرين والباقون من الأنصار، وكان معهم من الإبل سبعون بعيرا كانوا يتعاقبونها الاثنان والثلاثة والأربعة. وسمع أبو سفيان بخروج الرسول فى طائفة كبيرة من أنصاره، فعرف أنه يريد اعتراض القافلة، فأرسل إلى قريش فى مكة يستنفرها لحماية القافلة، وغيرَّ الطريق المعتاد إلى مكة، ونفر منها جيش كثيف بقيادة أبى جهل .

وعلم الرسول فى قرية الأبواء بالقرب من المدينة نبأ هذا الجيش فتوقف يستشير الصحابة أيتجه بهم إلى قافلة أبى سفيان وغنائمها أو يتجه بهم إلى جيش أبى جهل وما سيكون فيه من حرب وقتال. وانتصر الرأى الثانى المؤثر للقاء أبى جهل وجيشه حتى لا تترك له ولجيشه المدينة دون حراسة وحماية. وفى هذه الأثناء نزلت على الرسول الآية السالفة يعد الله فيها الرسول وصحبه بنصرهم على أبى جهل وجيشه معاتبا من ودوا لقاء قافلة أبى سفيان لما تحمل من الغنائم الكثيرة وفرارا من لقاء أبى جهل وجيشه وما يحمل من السلاح الذى سيدفعهم إلى القتال وسفك الدماء. ويقول لرسوله عمن جادلوه من أصحابه فى إيثار لقاء أبى جهل وجيشه : ﴿ يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ ﴾[1] أى فى لقاء الجيش القرشى ﴿ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ الحق ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ ﴾ والقتل وهم يرون ذلك عيانا. وهو تصوير واضح لفزع المجادلين من الحرب وحث على قتال جيش أبى جهل القرشى ووعد كريم بالانتصار عليه. ﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ ﴾ أى الإسلام وينصره ﴿ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ ﴾ الوثنى ويسحقه ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ من عبدة الأوثان .

---

(١) سورة الأنفال الآية ٦.

وقال الرسول لصحابته: سيروا على بركة الله فقد وعدنى ووعدكم بالنصر والتقوا مع الجيش القرشي عند آبار بدر فى منتصف الطريق بين المدينة ومكة. وفى صباح يوم المعركة نظّم الرسول صحابته فى صفوف متلاحقة وتزاحف الجيشان وأخذ الرسول يناشد ربه ما وعده من النصر، ويقول: "اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن يقوم لك دين ولن تعبد أبدا". وحميت المعركة، وأخذت رءوس كبار القرشيين تتهاوى، وقتل من صناديدهم سبعون، وأسر أربعة وسبعون، وتم النصر العظيم للإسلام فى أولى معاركه مع الكفار، كما وعد الله الرسول وصحبه.

وبهذا النصر الحاسم المبكر رسخت رسالة الإسلام وتأكد أن انتصاراته ستتوالى فى الجزيرة العربية، ولم تلبث الفتوح الإسلامية أن غيرت خريطة العالم بفضل الثلاثمائة من المهاجرين والأنصار الذين مزقوا الجيش القرشى البالغ نحو ألف من الرجال الأشداء، ومهدوا لقيام الدولة الإسلامية فى آسيا وإفريقيا وإسبانيا الأوربية، كما مهدوا لنشر حضارته الإنسانية العالمية إلى اليوم.

ووَعْدُ الله رسوله وأصحابه بالانتصار فى هذه المعركة سابق لها بنحو ثمانى سنوات أو تزيد، وهو لا يزال فى مكة يتلقى مع صحبه أذى قريش صابرين، إذ يقول للرسول فى سورة القمر النازلة عليه فى السنة الخامسة للبعثة المحمدية موجها خطابه إلى قريش ﴿ أَكُفَّارُكُمْ ﴾ يا أهل مكة ﴿ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰئِكُمْ ﴾ الكفار المذكورين فى السورة من أقوام نوح وهود وصالح ولوط وآل فرعون فتطمعون ألاّ يصيبكم ما أصابهم من مثل طوفان نوح والريح الصرصر التى أتت على عاد وقضت عليهم والصيحة التى قضت على ثمود قوم صالح والخسف الشديد لقرية لوط والإغراق لآل فرعون فى البحر الأحمر ﴿ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾[1] أى فى

(١) سورة القمر الآية ٤٣.

الكتب السماوية ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾[1] أى بلى يقول كفار قريش ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ أى أنهم جمع كبير وينتصرون على الرسول وصحبه، فرد الله عليهم قائلا: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾[2] أفرد الدبر والمراد الجمع أى الأدبار، وإنما أفرد رعاية للفاصلة فى السورة.

وواضح أن الآية إخبار بالغيب وأن المسلمين سينتصرون على المشركين حين يتجمعون لحربهم، وفى الصحيح أن الرسول كان يتلوها وهو يصف أصحابه لحرب قريش فى بدر. ويقول عمر بن الخطاب: لما نزلت هذه الآية مع سورتها فى السنة الخامسة من البعثة جعلت أقول أى جمع سيهزم؟ فلما كان يوم بدر رأيت النبى ﷺ يرددها أى أنه لم يتبين المراد بهزيمة الجمع فعرف حينئذ أنه جمع قريش لحرب الرسول وصحبه يوم بدر، وهى إخبار واضح بغيب حدث بعد ثمانى سنوات .

سورة الروم

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3] .

كانت دولة روما موحدة وكانت تشمل إيطالية وأجزاء من الغرب والشرق فى أوربا، ولما تولى قسطنطين الحكم فيها منفردا سنة ٣٢٢ للميلاد جعل لها

---

(١) سورة القمر الآية ٤٤.

(٢) سورة القمر الآية ٤٥.

(٣) سورة الروم الآيات ٢ – ٦.

عاصمتين: غربية تشمل روما وولاياتها الغربية، وشرقية وتشمل اليونان والولايات الشرقية حتى رومانيا والشرق الأوسط وشمال إفريقيا . واختط لها عاصمة سماها القسطنطينية أقامها على البسفور بجوار مدينة بيزنطة وعلى أنقاضها ولذلك أُطلق عليها الاسمان: القسطنطينية وبيزنطة، وسميت بلادها فى اليونان وغيرها باسم بلاد الروم، وشملت بلاد الأناضول والشام ومصر، مما جعلها تصطدم قبيل الإسلام بالدولة الفارسية، وكانتا تشتبكان فى حروب متصلة، واشتبكتا سنة ٦١٥ للميلاد فى حرب حامية بين بصرى وأذرعات وهما المرادان فى الآية الكريمة بأدنى الأرض وتبعهم الفرس فى دمشق وإنطاكية، وتم لهم الانتصار فاستولوا على الشام ومصر من بيزنطة. وابتهج العرب الوثنيون لانتصار الدولة الفارسية الوثنية على دولة بيزنطة. وتشير الآية الكريمة إلى هزيمة الروم ودولتهم البيزنطية أمام الفرس فى ديار الشام أدنى الأراضى البيزنطية وأقربها إلى ديار العرب، وبينما كان الوثنيون منهم يودون انتصار الفرس الوثنيين كان المسلمون يودون انتصار البيزنطيين لأنهم أهل كتاب سماوى مثلهم . ولم يلبث الله أن أخبر بغيب ما سيكون بعد بضع سنين من انتصار الروم على الفرس واسترداد الشام ومصر، وهو قوله: ﴿وَهُم﴾[1] أى الروم ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ أى بعد هزيمتهم ﴿سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾[2] والبضع من ثلاث إلى عشر وقد غلبوهم بعد سبع سنوات من انتصارهم، وهو إخبار عظيم من الله بغيب ما سيحدث بعد سنوات قليلة . وبذلك قمع الله تطاول الكفار على المسلمين بما حدث من انتصار الفرس على الروم إذ جاءهم خبر انتصار الروم مع هزيمة قريش الساحقة فى بدر.

---

(١) سورة الروم الآية ٣.

(٢) سورة الروم الآية ٤.

ويقول الله: ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ ﴾ أى من قبل هزيمة الروم ﴿ وَمِنۢ بَعْدُ ﴾ أى من بعد انتصارهم ﴿ وَيَوْمَئِذٍ ﴾ أى ويوم الانتصار ﴿ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ بما تحقق من وعد الله للروم بالنصر. وكان الكفار القرشيون الوثنيون يعدون هذا النصر للروم مستحيلا، ولذلك يقول الله لهم إنه لا يخلف وعده، ويصف الكفار الوثنيين بأن عقولهم قاصرة وأنهم لا يعرفون إلا ظواهر الحياة الدنيا ويغفلون عن معرفة بواطنها التى تحتاج إلى تأمل وبصيرة وتدبر إذ يقول لهم: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾[1].

سورة النور

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[2].

ظل رسول الله – ﷺ – ثلاث عشرة سنة بمكة يدعو الناس إلى الإسلام خائفا من قريش هو وأصحابه . ثم أمر بالهجرة إلى المدينة، ومكثوا فيها فترة خائفين يصبحون ويمسون فى السلاح فقال رجل يا رسول الله أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح؟! فقال رسول الله: اصبروا وعما قريب سيأتى يوم يجلس الرجل فيه بملأ من الناس ليس عليه حديدة من سلاح .

والآية تحمل بُشرى عظيمة للمؤمنين المهاجرين الذين يعملون الصالحات أى الأعمال الصالحة التى سنَّها وشرعها الإسلام من مثل العدل ومواساة الأقرباء

---

(١) سورة الروم الآية ٧.

(٢) سورة النور الآية ٥٥.

والفقراء، فقد وعدهم الله بالاستخلاف عنه فى الأرض وتدبير شئون أهلها كما حدث للأمم فى أرجاء العالم من فينيقيين ومصريين وفرس ويونانيين ويهود فى زمن داود وسليمان ولن يمنحهم حكم الأمم وحده، بل سيمنحهم أيضا تمكين دينهم فى الأرض التى عمروها ورسوخه فيها وليبدلنهم من بعد خوفهم المقلق لهم أمنا يملأ نفوسهم راحة واطمئنانا. وهو وعد عظيم من رب العزة للمسلمين المهاجرين إلى المدينة بدينهم الإسلامى دين الله الذى ارتضاه لهم فأصبحوا بعد قليل من وفاة الرسول أمة ضخمة يدين لها شطر عظيم من الأرض ينتشر فيه دينها الحنيف منذ خلافة أبى بكر وعمر، إذ ملك العرب المسلمون إيران والعراق والشام ومصر وأصبحت جميعها بلادا عربية إسلامية وأقيمت فيها سريعا المساجد وعبادة الله والصلوات اليومية الخمس. وما أعظمه من وعد إلهى كريم للمسلمين فى أوائل مقامهم بالمدينة.

سورة الفتح

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[1].

لم تعد قريش تفكر – بعد غزوة الأحزاب – فى غزو المدينة، وكان الرسول يستبعد فكرة غزو مدينة مكة، لأن بها الكعبة بيت الله والعرب من أجل قيامها عليه يعظمونها. ورأى أن يعلن أنه هو وأصحابه ذاهبون إليها لأداء العمرة وزيارة كعبتها المقدسة التى يتجه إليها هو وأصحابه خمس مرات فى صلواتهم كل يوم من الصباح إلى المساء.

---

(١) سورة الفتح الآية ٢٧.

وفى شهر شوال من السنة السادسة للهجرة، رأى فى نومه رؤيا عظيمة أنه دخل الكعبة حالقا رأسه كما يصنع الحجاج والمعتمرون، وأنه أخذ مفتاحها، ووقف بعرفات مع الواقفين. وأبلغ الرؤيا أصحابه. وصمم على أداء العمرة وزيارة الكعبة فى أول شهر ذى القعدة، واستنفر المهاجرين والأنصار لأدائها معه واستجابوا له واستجاب بعض الأعراب ممن ينزلون حول المدينة. وخرج من المدينة على ناقته القصواء متجها إلى مكة فى عدد ضخم من أصحابه يتراوح بين ألف وثلاثمائة وألف وخمسمائة، وأخرج معه الهَدْى الذى سيضحى به عند الكعبة وكان سبعين ناقة. وعند ذى الحليفة ميقات أهل المدينة بالقرب منها ألقيت على الهَدْى البُرد والثياب وأُشْعر منه عدة نوق، وذلك بأن يُشَقَّ فى جلدها أو تطعن فى سنامها. بمبضع حتى يظهر الدم، وجُعلت فى أعناق النوق قلائد ليعرف أن النوق هَدْى مهدى إلى الكعبة وأن الرسول وأصحابه لم يخرجوا لحرب قريش وإنما خرجوا لأداء العمرة. وأحرم الرسول ولبس ثوب الإحرام وصلى ركعتين، وأحرم الصحابة مثله، واتجهوا جميعا إلى مكة يلبون قائلين: "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك".

وعلمت قريش بخروجه إليهم، فتشاورت، ورأت الاستعداد للقائه، وبلغ الرسول ﷺ شجرة الحديبية على بعد تسعة أميال من مكة وعسكر بها مع أصحابه، وأخذت تفد عليه رسل قريش وسفراؤها يريدون التثبت من أنه لم يأت لحرب، وكرر للرسل والسفراء أنه إنما أتى لأداء العمرة وزيارة البيت. وأرسل الرسول إلى قريش عثمان ليطمئنهم ويخبرهم أن الرسول وأصحابه إنما جاءوا لزيارة الكعبة وأداء العمرة، ومعهم الهدى ينحرونه، ويطوفون بالكعبة وينصرفون .

ولم يرجع عثمان سريعا، وظل فى قريش ثلاثة أيام فراجت إشاعة بين المسلمين أن قريشا قتلت عثمان، وتأثر الرسول لما تكرر على سمعه من قتل

عثمان، فدعا إلى البيعة فى حرب قريش، وبايعه الصحابة وهو قائم تحت شجرة الحديبية ونزل قوله تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾[1] ولذلك سميت بيعة الرضوان .

وتأكدت قريش أن الرسول وأصحابه إنما جاءوا لأداء العمرة وزيارة الكعبة فأرسلت مع عثمان إلى الرسول سفيرا من شيوخها هو سُهيل بن عمرو ليفاوضه فى تأجيله أداء العمرة إلى العام القادم حتى لا يظن العرب أنه دخل مكة قهرا لقريش فتسقط مكانتها الرفيعة بينهم. وانتهت المفاوضات بين الرسول ﷺ وسهيل بموافقة الرسول على ما طلبته قريش، وحضرت الدواة والصحيفة وكتبت معاهدة بذلك وأن محمدا يرجع عامه هذا بأصحابه ويدخل على قريش فى العام القادم ولا سلاح معه إلا سلاح المسافر: السيوف فى القرب. ويقيم بمكة ثلاثة أيام. وعاد سهيل بالمعاهدة إلى قريش. وبلّغ الرسول الصحابة المعاهدة، وأمرهم أن ينحروا الهدى ويحلقوا رءوسهم أو يقصروها وينووا الخروج من الإحرام للعمرة. فلم يجبه أحد إلى ذلك سريعا، فقصد إلى هَدْيه رافعا صوته: بسم الله والله أكبر، فتواثب المسلمون ينحرون هديهم. ولما رجع من نحر هديه حلق رأسه وأذن بتقصيره. وقال المنافقون: لم جئنا؟ وفيم كان مجيئنا وانصرافنا؟ وفيم كانت رؤيا الرسول أننا سندخل المسجد الحرام وأننا سنؤدى العمرة ونزور الكعبة؟ ونزلت الآية الكريمة المذكورة فى أول الكلام تنبئ المسلمين بأن رؤيا الرسول بدخول المسجد الحرام آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين رؤيا صادقة أراها الله لرسوله فى منامه. ويقول الله للمسلمين إنه جعل لكم ﴿ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[2] يريد فتح خيبر وما يصيبون من مغانم كثيرة فيه.

---

(١) سورة الفتح الآية ١٨.

(٢) سورة الفتح الآية ٢٧.

سورة الفتح - سورة التوبة

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴾[1] .

نزلت هذه الآية بعد سابقتها مباشرة فى سورة الفتح ونزلت بعد ذلك فى سورة التوبة بجعل خاتمتها ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾[2].

والآية فى سورة الفتح تأكيد لصدق الرؤيا التى رآها الرسول ورأى نفسه فيها وأصحابه داخلين المسجد الحرام آمنين محرمين محلّقين رءوسهم ومقصّرين، إذ الله هو الذى أراه فى حلمه هذه الرؤيا الصادقة، ويبشر المؤمنين بأنه أرسل محمدا بالهدَىْ وكل ما جاء به من تعاليم الإسلام وشريعته وأصوله من الإيمان بوحدانية الله وفروض الدين وفضائل السلوك والأخلاق التى زكت نفوس المسلمين لأنهم يعتنقون الدين الحق الذى أرسل الله به محمدا وجعله خاتمة الديانات الإلهية ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ أى لينصره على جميع الديانات الوثنية كديانات العرب والقرشيين الذين نزلت فيهم سورة الفتح وديانات أهل الكتب السماوية والمشركين الذين كان يتحدث عنهم فى سورة التوبة. وقد نصر الله الإسلام فى الجزيرة العربية لعهد الرسول على جميع الديانات، وتابع نصره عليها فى عهد خليفتى الرسول الأولين أبى بكر وعمر بانتصاره على الفرس وعقيدتهم الوثنية فى إيران وانتصاره على أهل الكتاب فى الشام ومصر، وتوالت انتصاراته حتى أصبح للمسلمين دولة ضخمة من أواسط آسيا حتى المحيط الأطلنطى .

---

(١) سورة الفتح الآية ٢٨.

(٢) سورة التوبة الآية ٣٣.

سورة الحجر

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[1].

يقول الله – جل شأنه – إنه نزَّل الذكر أى القرآن، وإنه حافظ له من الضياع ومن الزيادة والنقص فيه ومن أى تغيير فى ألفاظه أو تبديل، وقد استقر فى صدور الأمة الإسلامية واشتهر حفاظه منذ عصر الرسول، وبلغوا حد التواتر فى كل بلد إسلامى حتى اليوم، وهو جانب واضح من تحدى القرآن وإعجازه: أن الله كتب لكل كلمة فيه وكل حرف أن يظل خالداً فى كل زمان، وهو خلود يشهد بأنه من عند الله كما يشهد بصدق رسوله، ولو كان من عند غير الله لدخلته وجوه من النقصان والزيادة ووجوه شتى من الاختلاف فى آياته كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[2] وقد حفظه الله من أى اختلاف وأى تبديل أو تغيير فيه .

والقرآن هو الكتاب السماوى الوحيد الذى تناقلته أجيال وعصور شتى بنفس كلماته وحروفه التى نطق بها الرسول منذ أربعة عشر قرنا، وسيظل ذلك له، لأن الله وعد – كما فى الآية – أنه هو الحافظ له الذى تحوطه ذاته بحفظه وصيانته. وهى ميزة إلهية له بخلاف التوراة والإنجيل إذ أوكل لأحبارهما أن يقوموا على حفظهما كما قال: ﴿ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾[3] فجعل حفظه إليهم فدخلهما التغيير والتبديل، أما القرآن فحُفظ بذاته العلية، دليلا معجزا على أنه من عند الله، إذ لو كان من قول البشر لدخله التبديل والتغيير .

---

(١) سورة الحجر الآية ٩.

(٢) سورة النساء الآية ٨٢.

(٣) سورة المائدة الآية ٤٤.